المقتطف

الجزء السادس من المجلد الثالث والثلاثين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٨ — الموافق ٢ جماد اول سنة ١٣٢٦

قاسم بك امين

من الرجال مَن لم قيمة ذاتية تظهر بكتاباتهم وتعاليمهم وقلما تتغيَّر بتغيُّر الازمنة والامكنة سواءٌ عرف معاصروهم قدرهم او جهلوهُ وسواءٌ كانت بلادهم محتاجة اليهم او مستغنية عنهم مثل سقراط وافلاطون وده كارت وباستور وسبنسر. ومنهم مَن قيمتهم قائمة بحاجة بلادهم اليهم او بالنفع الذي يتالها منهم وتظهر بما يأتونهُ من الافعال مثل بونابرت ووشنطون ومحمد علي. ومنهم مَن تكون لهم قيمة ذاتية ولكن لا يمدُّ لهم الاجل حتى تظهر مزاياهم او لا يوفقون الى نشر آرائهم وافكارهم او تكون بلادهم في خمول فلا تعرف قدرهم او لا تستفيد منهم ككثيرين من اذكياء العقول الذين قضوا في سن الشباب او وُجدوا في بلاد اهاليها سكارى بخمرة الجهل او نيام في ظلمات الإهمال. ومنهم مَن قوامهم عادية ولهم امتياز قليل على اترابهم ولكنهم يظهرون زمن شدَّة التنبه فيكبر شأنهم وتشتهر قدرهم كأنهم بزور القيتَ في ارض خصيبة. ومنهم من يُتاجَر باكرامهم ويُبالَغ في اعلاء قدرهم لغرض سياسي او ديني او لمصلحة اخرى فيعطون فوق ما يستحقون

وكيفما كانت الحال فقدْر الرجال الحقيقي لا يعلم الأبعد مرور الازمان وتمحيص الاقوال والافعال بنار الامتحان. وقد تبقى الحقيقة طامسة طيَّ الخفاء. فكم من عالم حكيم تضمُّ هذه الغبراء وقد نسي اسمهُ ولا يعلم شيءٌ من امره وكم من مزاري على رفات احمق متنطِّع والناس يزورونهُ صباح مساء ويتبرَّكون بهِ. وكم في ميزان هذا الدهر من خفيف مرتفع وثقيل منخفض ولعلَّ الحقائق المجهولة اكثر من المعلومة

هذا ولا شيءٌ مثل حرية القلم وحرية اللسان لاظهار اقدار الرجال ولاسيما اذا نشأت الاحزاب واخذ كل حزب يغالي بما عندهُ في هذه الحال قلما يضيع رجل لهُ قدْر ومريدون.

وقد يعطي الرجال حينئذٍ اكثر من حقهم وهو الغالب . ولكن اذا كان للرد اقوال مكتوبة منشورة فهي ميزان فصل وحي وحدها كفيلة بتخليد ذكرٍ او كان مما يستحق الخلود لانها لا بدَّ من ان تذيع عاجلاً او آجلاً فتقدرها العقول قدرها

منذ بضع عشرة سنة اهدى الينا قاسم بك امين نسخة كتابه الذي ردَّ بهِ على دوق دركور فرأينا انهُ من كبار الكتاب المتعلمين ولكنهُ جار على الدوق في بعض المواضع فانتقدناهُ في المقتطف انتقاد عارف بقدره . والظاهر ان انتقادهُ لكتاب دوق دركور اثَّر في نفسهِ تأثيرًا شديدًا على ما اثبتهُ صاحب المنار في تأبينهِ لهُ قال

" اخبرني قاسم انهُ كان يوم اطَّلع على ما كتبهُ الدوق دركور غافلاً عن حال النساء بمصر فالمَّهُ ذلك النقد والتشنيع فاندفع الى الرد بوجدان الغيرة وبعد ان شفى غيظهُ وارضى غيرتهُ بذلك عاد الى نفسهِ وفكَّر في الامر فرأى ان كثيرًا من العيوب التي عاب الدوقُ بها البيوت المصرية صحيح في نفسهِ فبعثهُ ذلك الى ان درس هذه المسألة قائلاً في نفسهِ انهُ لا ينفعنا اذا كان العيب فينا ان نردَّ على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومهِ وانما يجب علينا ان نبحث عن عيبنا فنعرفهُ ونسعى في ازالتهِ . وطفق يبحث ويسأل ويفكر في حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الافرنج في شأن النساء وانتهى بهِ البحث والتنقيب الى تصنيف كتاب تحرير المرأة الذي هزَّ مصر هزة شديدة وشغل جرائدها في تقريظهِ ونقدهِ زمنًا طويلاً وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعًا الى التصنيف في الرد عليهِ وبذلك طار صيت قاسم بك امين في الآفاق وعُرف اسمهُ في الشرق والغرب وعُدَّ من المصلحين الاجتماعيين "

ولما صدر كتاب تحرير المرأة طالعناهُ وقرظناهُ في المقتطف وانتقدناهُ (انظر الصفحة ٥٢٧ وما بعدها من المجلد الثالث والعشرين الصادر سنة ١٨٩٩) . وختمنا التقريظ والانتقاد بقولنا حينذاك لو تصفَّح هذا الكتاب النفيس كل من يغار على وطنهِ وامتهِ وساعد مؤلفهُ في بث آرائهِ بين الجمهور " . ونحن نكرر هذا القول الآن ونكرردُ دائمًا لانهُ ان لم تعلَّم النساء وتتهذَّب استحال على الامة ان تجاري الامم الراقية في هذا العصر

ثم زارنا بعد ظهور المقتطف وتذاكرنا في موضوع كتابهِ فاعربنا لهُ عن رأينا وهو ترك الشواهد الدينية في المباحث العلمية على قدر الامكان لانهُ لا يُطلب من الباحث اثبات الحقائق العلمية والمذاهب الاجتماعية بالآيات الكتابية والاحاديث النبوية كما انهُ لا يُطلب من المهندس والطبيب والزارع ان يثبتوا قواعد علم الهندسة وعلم الطب وعلم الزراعة بالادلة الدينية . ووجه الضرر من الطريقة التي جرى عليها ان الذين يخالفونهُ رأيًا لا يتعذَّر عليهم ان

يأتوا بادلة دينية تناقض ادلته وتنفي نتائجه كما وقع فعلاً . اما هو فكان جسوراً لا يخاف في الحق لومة لائم فلم يرجع عما قال وعزز كتابه الاول بكتاب ثان موضوعه المرأة الجديدة وهو في رأينا كالكتاب الاول او يفوقه في قوة الحجة ووضوح الدليل فاستقيلناه بالبشر وقرظناه ونقلنا منه فصلاً سهباً في الجزء الثاني من المجلد السادس والعشرين موضوعه التربية والحجاب . ولو لم يكتب قاسم بك غير هذا الفصل لكفى وحده لشهرته ولقرن اسمه باسماء اشهر المصلحين . ولقد كان في كل كتبه وخطبه واحاديثه ينظر الى الزمن السعيد الذي تتعلم فيه المرأة الشرقية فيصير كل نساء المشرق مثل فضليات نساء المغرب من حيث العلم والتهذيب

الا ان اجتماعنا به كان قليلاً جداً فحكمنا عليه مبني على ما قرأناه من كتبه وخطبه وهذا لا يكفي لان كثيراً مما يُكتب يتلى عادة قد يكون منقولاً كله او بعضه عن كتب الافرنج وخطبهم . لكن الذين عاشروه طويلاً وعرفوه تمام المعرفة يقولون انه لم يكن كذلك . قال كاتب في " الجريدة " ولعله مديرها نفسه " كان قاسم بك اجتماعياً لا كبقية الاجتماعيين الذين يحاولون ادمغتهم تحافظ لآراء الغير فاذا حضرتهم المناقشة او دعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعي اخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير ان يكون لعقلهم في الموضوع نصيب من الرأي . لا . لم يكن كذلك ابداً بل كان مفكراً بالاصالة نقاداً لا يستغني عن افكار الغير ولكنه لا يعتنقها الا اذا اعتقدها وصارت له بما قام في نفسه عليها من الادلة اليقينية "

ثم قال " بحث قاسم بك في المسائل الاجتماعية على العموم فكان رأيه فيها انها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية قوانين التحليل والتركيب والنمو التدريجي والانتقال وبحث في المسألة الاجتماعية المصرية على الخصوص فوجد ان حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ووجد ان المرأة هي الاساس الاول لبناء العائلة "

فهذا شاهد صريح بان الفقيد كان من اهل الرأي والنظر وان ما كان يذكره في كتبه وخطبه واحاديثه إما من مبتكراته او من آراء غيره التي اعتنقها بعد ان اعتقدها بما قام في نفسه عليها من الادلة اليقينية . وما هو كالدبباجة لكل ما رأيناه مما كتب وخطب العلم الواسع والاخلاص التام والبعد عن الدعوى . ولقد كان من أكبر المهتمين بانشاء الجامعة المصرية ولما اوقف لها حسن باشا زائد اطياناً كبيرة الريع وذهب مع لجنة لاستلام الوقفية خطب فاثنى على عهد البلاد واعيان الاقاليم لكرمهم وودهم ان يكون هذا المكرم في محله دائماً . قال " لو كان المحسنون يوجهون ارادتهم الى احياء امتهم وتعظيم وطنهم اكثر

من اهتمامهم بشراء الزهور وتشييد القبور واضاءة الاضرحة — لو كانوا يجودون للاحياء بنسبة اخير المنتظر منها لكانت الجامعة المصرية اليوم كامثالها في البلاد الاخرى اغنى جمعية في هذا القطر ولكنها افقرها جميعاً " الى ان قال

" ايها السادة ان الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيراً ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الامم وفتحوا البلاد ولم نسمع انهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم فيحسن بنا ان نقتدي بهم ونحجم القول ونعتمد على العمل

" يجب علينا ان نفهم ان مسألتنا الاجتماعية ليست شيئاً وجد بالصدفة او يشير بمعجزة بل انها كسائر القضايا العلمية مسألة تحليل وتركيب وان لتكوين ونمو الجمعيات الانسانية اسباباً عديدة ترتبط بالدين والشرائع والاخلاق والاقليم والجنس واللغة وطرق التربية فتغيير الحال الاجتماعية انما يكون بتغيير الاسباب التي اشتركت في تكوينها فكل ما يكتب ويعمل ويقال في هذا الموضوع هو خير مبارك منتج وما عداه فهو تعب ضائع

" ايها السادة : ان من اهم اسباب انحطاط الامم وارتقائها طرق التعليم والتربية واذا نظرنا الى ما يجري عندنا وجدنا ان التعليم الموجود الآن لا يصلح الاّ لاعداد موظفين او اصحاب فن يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التي لا يستغني عنها كالطب والهندسة والمحاماة وهذا التعليم يوزع في مدارسنا على الطلبة بمقدار معلوم لا يزيد عن الغاية التي وضع لاجلها

" تلك هي خطة الحكومة في التعليم وقد حذا حذوها اصحاب المدارس الخصوصية والحكومة تعترف بان هذا القدر من التعليم غير كاف ولكنها اضطرت الى عدم التوسع فيه للاسباب التي شرحتها في تقاريرها العديدة واهمها كما تعلمون هي مسألة المال

" وفي الحقيقة انهُ لا توجد حكومة في العالم تستطيع ان تتولى بنفسها امر التعليم العام بفروعه ودرجاته واذا نظرنا الى ما يجري في البلاد المتمدنة نجد ان القسم الاعظم من التعليم في يد جمعيات عليّة في المؤسسة والمديرة لنظامه وان عمل الحكومة فيها محصور في تعضيدها ومساعدتها على قدر الامكان

" هذا هو الذي حمل الحكومة المصرية على استنهاض همة الاهالي لنشر التعليم الابتدائي وهذا ما دعانا ايضاً الى ان نطلب من ابناء وطننا ان يفكروا في نشر التعليم العالي وان يبذلوا ما في وسعهم في سبيله ليكمل نظام التعليم في بلادنا ويصبح وافياً بجميع حاجات الامة

" ايها السادة : نحن لا يمكننا ان نكتفي الآن بان يكون طلب العلم سبيلاً لمزاولة صناعة او لالتحاق بوظيفة بل نطمع ان نرى بين ابناء وطننا طائفة تطلب العلم حبًّا

لحقيقة وشوقاً الى اكتشاف المجهول . فقلة يكون مبدأها التعلم للعلم . نود ان نرى من ابناء مصر كما نرى في البلاد الاخرى عالماً يحيط بكل العلم الانساني وخصوصاً الفن فرعاً مخصوصاً من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به . وفيلسوفاً اكتسب شهرة عامة . وكاتباً ذاع صيته في العالم . وعالماً يرجع اليه في حل المشكلات ويحتج برأيه . امثال هؤلاء هم قادة الرأي العام عند الامم الاخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها فاذا عدمتهم امة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون

" ايها السادة : اذا نظرنا الى طائفة المتعلمين في مصر وهم متخرجو المدارس العالية نجد انهم يعملون على مبدإ «اكسب كثيراً واتعب قليلاً» ولا نجد فيهم العامل الحب لعلمه او فنه والعاشق الذي تحمل شهوة العمل في قلبه وتتقد فيه وتملأه برمته ولا تقبل منافساً او منازعاً او شريكاً او ضيفاً بجانبها . وانما نجد افراداً قليلين جداً يصرفون وقتاً قصيراً من حين الى حين لتكميل معارفهم ولكنهم مجردون عن تلك الحمية تلك النار التي تشعل القلب والشعور والتي بدونها لا تبحث النفس عن تجديد العمل ولا تطلب الارتقاء الى المراتب السامية

" ألا يظهر لكم مثلي ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لاحساسه وان اكثر الناس استعداداً للكمال هم اصحاب الاحساس الذين تهتز اعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغاً عظيماً فيظهر اثرها فيهم بكثرة وشدة . اولئك هم السعداء الاشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . اولئك هم السابقون في ميدان الحياة تراهم في الصف الاول مخاطرين بانفسهم يتنافسون في مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحي اليه اسرارها فيصير شاعراً بليغاً او عالماً حكيماً او ولياً طاهراً او نبياً كريماً

" ايها السادة : ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب ان نفكر في ازالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التي غفلت عن تربية احساسنا واهملت تربية قلوبنا وشعورنا فاصبحنا ماديين لا نهتم الا بالنتائج في جميع امورنا حتى في الاشياء التي بطبيعتها يجب ان تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الاقارب والاصحاب . وليس من المنتظر ان نتغير اخلاقنا من هذه الجهة تغيراً محسوساً الا اذا تم اصلاح العائلة المصرية

" هل يجوز ان يؤخذ من اعترافنا هذا انا نخشى ان الجامعة المصرية اذا فتحت ابوابها لا تجد طلاباً للعلم ؟ سمعت هذا الاعتراض واعتقادي التام انه وهم باطل . نحن اذا كنا نأسف لعدم بلوغ حب التعلم الدرجة التي نتمناها له فليس معنى ذلك انه مفقود في بلادنا .

حب التعلم موجود ووجد في بلادنا من قديم الزمان ولا يزول عن ارضنا ابدًا : وتاريخ مصر الحديث يثبت بأقوى البراهين ان حب التعلم كان ولا يزال يتوقى نفوس امتنا من عهد المرحوم محمد علي باشا الى الآن

"وفي امل عظيم ان انشاء الجامعة المصرية يكون سببًا في ظهور نشيبة هذا الجيل وما يليه على احسن مثال وما حالة القلق والاضطراب التي نلاحظها فيها الآن الا انذار مطمئن يدلنا على انها مملوءة بقوة عظيمة تطلب ميدانًا لتصرف فيه لتتمتع بالتوازن الملازم لصحتها

"هذا هو البناء الفخيم الذي نحب ان الامة المصرية تشيده بيدها ليبقى اثرًا خالدًا في هذا القطر وشاهدًا على حسن استعدادها للخير العقلي والرقي الادبي فكل من وضع حجرًا في هذا البناء يخدم امته اجل خدمة . فشكرًا لسابقين وشكرًا للاحقين في هذا العمل الصالح . واني ارى في الصف الاول من صفوف المحسنين المتبرعين الذين يعرفون كيف يصرفون اموالهم في سبيل الخير رجلين قاما بما يجب عليهما وهما حضرة احمد بك الشريف وصاحب هذه الدار الكريمة" . اه

والفقيد مثل كثيرين من ابناء مصر الذين نبغوا في هذا العصر غرباء انتموا هم او آباؤهم او اجدادهم فقد نقلت الجريدة ان ابا "كردي جيء به مصر في زمن اسمعيل باشا ودخل الجيش المصري ورقي فيه الى رتبة اميرالاي وتزوج بكريمة المرحوم احمد بك خطاب اخي ابرهيم باشا خطاب فكان الفقيد اكبر اولادها" . وقد يستغرب البعض ان كرديًا يدخل مصر فيحسب نفسهُ من ابنائها ويحسبهُ اهلها منهم وشاميًا يدخل مصر ويقيم فيها هو واولادهُ واولاد اولادهِ فلا يحسبها وطنًا لهُ وان حسبها هو وطنًا لم يحسبهُ اهلها منهم وقس على ذلك اليوناني والايطالي والفرنسوي ولكن لا وجه للغرابة في ذلك فان كل الذين جاءوا مصر ولا وطن لهم او لا بلادَ لم يفتقر بها يضطرون بطبيعة الحال ان يتخذوا مصر وطنًا ويُنسبوا اليها واما الذين لهم وطن آخر يفوق مصر او لا يقل عنها كفرنسا وايطاليا وسورية فلا يجدون ضرة بل رفعة في نسبتهم الى وطنهم الاصلي ولاسيما لان الزمن الماضي قبل الاحتلال كان يجعل للاجنبي من هؤلاء مزية على الوطني . وبهذا الزمن الذي تصير فيه كل الامم التي استوطنت القطر المصري مصرية لفظًا ومعنًى ويصير ابناء اعظم الدول الاوربية يفتخرون بنسبتهم الى الديار المصرية اذ تتمتع مصر بكل الحقوق السياسية والاجتماعية التي تتمتع بها ارقى الامم الارض ويُعرَف حينئذٍ قدر قاسم بك امين وكل المصلحين انصاف ما يُعرف الآن

هذا وقد احتفل بدفن الفقيد احتفالاً يكاد يكون منقطع النظير في مهابته واسف

المشتركين فيه سار في موكب الجنازة نخبة رجال العاصمة من وطنيين واجانب يتقدمهم كبار العلماء ونظار الحكومة المصرية ومستشاروها ووكلاء نظارها ورجال القضاء وغيرهم من كبار الموظفين والاعيان وأمة عند دفنه نخبة اصدقائه يتقدمهم صاحبا السعادة سعد باشا زغلول ناظر المعارف وفتحي باشا زغلول وكيل الحقانية وأُبّن في اندية كثيرة من اندية القطر واجمعت الجرائد العربية والافرنجية على التنويه بفضله والاسف عليه

آثار منف

على مقربة من القاهرة حيث البدرشين وميت رهينة وصقارة كانت مدينة منف عاصمة القطر المصري التي مصّرها الملك مينا قبل المسيح باربعة آلاف او بخمسة آلاف سنة وبقيت عاصمة لهذا القطر الى زمن الفتح الاسلامي بعد المسيح بسبعمائة واربعين سنة . وقد نشأت في القطر المصري عواصم اخرى في ازمنة مختلفة ولكن بقيت منف عاصمة العواصم ومركز تجارة البلاد وغناها الى زمن الفتح . وبعد الفتح توالى انحطاط البلاد فقل السكان وخربت الخيرات فهجرت منف . وكانت مبانيها الفخيمة لا تزال كثيرة في زمن عبد اللطيف البغدادي كما يظهر من وصفه لها [1] ولكنها هُدمت بعد ذلك وصار النيل يغمرها ويغطيها بطميه حتى لم يبقَ منها اثر ظاهر . ويعلم الذين كانوا يذهبون الى صقارة بطريق البدرشين انهم لا يرون من آثارها الا تمثالين كبيرين من تماثيل رمسيس الثاني وبعض الحجارة المتفرقة . ولقد احجم الباحثون عن كشف آثارها الى الآن لان اكثرها مغطًّى باراض زراعية يصعب ابتياعها من اصحابها . ثم وجهوا همتهم اليها في الشتاء الماضي فبحثوا اولاً عن حرم هيكل فتاح معبود اهل منف فعرفوا حدودهُ ووجدوا طولهُ ثلث ميل وعرضهُ ربع ميل اي ان مساحتهُ كمساحة هيكل الكرنك

(١) قال عبد اللطيف في كتابه الافادة والاعتبار بعد وصف ما شاهدهُ في منف من آثار الماضي «واما الاصنام وكثرة عددها وعظم صورها فامر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير . واما اتقان اشكالها واحكام مبانيها والمحاكاة بها الامور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة فمن ذلك صنم ذرعتهُ سوى قاعدتهِ فكان نيفاً وثلاثين ذراعاً . . . وهو حجر واحد من الصوان الاحمر . . . وبعض الاصنام مع كثرتها قد تركتها الايام الا الاقل منها جماداً وغادرتها رماداً ولقد شاهدت كبيراً منها وقد شخت من فمه نحو ربع قطرها ذراعان ولم يظهر في صورته كبير تشويه »